جيد. حقيقي. ثمة فخر في القبض عليه. ولا طريقة اخرى لاصطياده» (ص ١٠).

راماد هو صلة الحاضر ما بين الماضي والمستقبل. هذه العلاقة بين الازمان هي التي تشكّل جوهر شخصية راماد المؤسطرة. ورأيه في ابيه، موسى علي، رأي حادّ: «... باع بدويته» (ص ١٤). واضاف: «احيانا، ارى به بدوياً حقيقياً. فقط عندما يخرج لمصافحة الناس من المستوطنة ارى انه لهم، وليس لي. لأنه، لأجل الصداقة والراحة، ضحّى بحرية الصحراء» (ص ١٤).

فتهمة موسى علي ببيع بداوته هي برهان على حفاظ ابنه راماد على بداوته. والمحك ـ كما يبدو على طول صفحات الرواية ـ بالنسبة الى راماد هو قدرة البدوي على محافظته على تراثه وعلى نقاء بداوته: «الآن يريدون ان يأخذوا النمر منّي ايضاً. هذه حرب الآن. ولا يمكن ان لا ينتصر الجمل والنمر والولد وانا ايضاً. لانه اذا ما خسرنا، عندئذٍ لن تكون عدالة في العالم. وفي الصحراء خلقوا العدل» (ص ١٦). فالصحراء، بالنسبة الى راماد، هي ميزان العدل؛ ولا يمكن ان يكسر مجيء اليهود الى الصحراء هذا الميزان ويغيّره. لذا، نرى ان شخصية راماد هي شخصية رومانسية تعيش في حلم البداوة القديم، وهي تمثّل اللاوعي والمثاليات ومركز شد عصب الرواية. فلولا هذه الشخصية لبدت احداث الرواية باهتة. وحتى اللحظة الاخيرة، يظل راماد محتفظاً ببداوته واصالته وتراثه ـ على نحو رومانسي ـ وهو يقود عائلته وجماله معه؛ الاسطورة تسير مبتعدة من الفساد والملاحقة، لكن الطوفان يأتي ويغطّي راماد، وتبقى الصحراء كما هي.

يونتان؛ محاصرة راماد

يونتان شاب متحمّس احضره يغئال الى الصحراء. وهو يقوم بالحفاظ على القانون في مجال عمله: الحفاظ على الطبيعة. حين يعلم بأن راماد ما زال يرعى ويربّي الجمال، يحاول مصادرة حرية راماد. فيونتان يعرف اشياء كثيرة: «اخبرني موسى علي، البدوي، بأنه يوجد نبع لا يعرفه احد، عدا البدو. موسى علي وعائلته هم آخر البدو هنا» (ص ٢١). ولا يخفي هذا الشاب حقيقة نفوره من العرب، فيقول: «انا، بالاساس، رجل ميدان ولست رجل كتب. رجل روائح، آثارات، ماء، اعقاب حيوانات وبشر. البشر أحبّهم اقل. بالذات المتنزهين والبدو. ينزع المتنزهون للضياع، ويظهر البدو دائماً في اماكن ممنوع دخولها، مثل هذا التيس [المقصود راماد]. ليتركوا الطبيعة لمن هو مسؤول عنها؛ عندئذ، يمكن حراستها بهدوء» (ص ٢٧). راماد يريد ان يعيش حياته البدوية بحرية، لكن الحرية ـ مع مجيء اليهود ـ وأسرة حماية الطبيعة صارت محدّدة ونسبية. لذا، بدت المواجهة بين راماد ويونتان مؤكدة.

موسى علي؛ التأرجح بين عالمين

شخصية موسى علي شخصية مركزية في الرواية. وابنه راماد، الذي ولد له في نزوة من امرأة (نمرة) لم يتزوجها، يشكّل القطب الاساسي الذي تدور حوله حياته. فهو يعتبر راماد «ولدي الوحيد الحقيقي. ربما لم يكن ولدي بتاتاً، مثلما ان اسحق هو ابو اليهود والنصارى ونحن ايضاً. وُلد وَلد مثل يسوع، من الله وامرأة. الآن دوره» (ص ٣١). فموسى علي ينتظر مقدم يونتان عدو ابنه: «وانا، الآن، بدوي يهود. انتظر عدوّ ابني، الذي سيأتي للاستفسار عن تفاصيل، ليبادر الى حربه. سأنكر. لا اعرف احداً. ساستغرب كثيراً» (ص ٣١).

فراماد، بالنسبة الى موسى علي، هو استمرار عنصر البداوة في الصحراء. ومطاردته تعني مطاردة البدو. ويهجس موسى علي بما يقلقه: «زمن طويل وانا انتظر، حتى منذ ايام الاتراك، ومنذ ايام الانجليز، والآن في ايام اليهود. على الرغم من ان الوضع لم يكن معقداً مثل اليوم، تعامل الاتراك والانجليز معنا مثل غبار الريح، وثمة لا شيء تستطيع فعله ضد الغبار. لكن يلزم عند اليهود ان تكون كل ذرة في مكانها» (ص ٣٢). ومع ان نبرة التنميط والقولبة عالية في هذه الفقرة، الّا انها توحي بحقيقة العالم المتغيّر الذي يعيش فيه البدو الآن: «لا مزيد من البدو في البلاد. حتى انهم لا يشعرون ـ البدو ـ بكيف جمعوا الريح والغبار وحوّلوهما الى طين جامد» (ص٣٢). والبدوي، بكل ما يحمله من حب للصحراء والحرية، يظهر في اعتراف موسى علي: «وفجأة، أُخِذْتُ